الانتخابات.. تجعل الملوك على دين شعوبهم

لون السبابة الأزرق لون فأْل لا شُؤْم مثلما تراه ديانات عراقية

رشيد الخيُون

هناك أيام في حياة الإنسان تبدو فاصلة بين زمن وآخر. يوم الولادة مثلاً هو زمن فاصل بين العدم والوجود، ويوم الدخول إلى المدرسة فاصل بين الطفولة الطائشة وبين الطفولة المسؤولة، وأول يوم يحب فيه الإنسان هو فاصل في تاريخ عاطفته، فيظهر متأنقاً ومتكلفاً لأجل إرضاء الحبيب، يُسهل أمامه كل شيء حتى قيل للفتى أو الفتاة تشجيعاً لركوب الصعاب: "عفية ابني العاشق" أو عفية ابنتي العاشقة"، فتأملوا ماذا يعمل الشعور بالحب في حياة الإنسان من هوائل.

شعرت بزهو تلك الأيام مجتمعة وأنا أقف مع نفسي أُخيرها بين الأحد عشر والمئة قائمة، أية قائمة أختار؟ وعندما اخترت ارتعش القلم في يدي رهبة وخشية من الخطأ أو الزحف إلى قائمة أخرى، أو رهبة من المسؤولية وكأن بصوتي منفرداً سيصعد ملكاً وينزل آخر. كنت أمام امتحان عسير، لأن الأمر يتعلق بوطن وشعب لا بهيئة طلابية أو لجنة ثقافية، أو جلسة حوار نختار لها رئيساً لساعة أو ساعتين. أقول لنفسي: أتعلمين ماذا يعادل الصوت في هذه اللحظة؟ يعادل انقلاباً عسكرياً من انقلابات الماضي، ويساهم في الإعداد لثورة، كنت أسمع خبرها عبر المذياع فجراً، مع العبارة المقدسة، وهي كلمة حق يراد بها الباطل "ظهر الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا".

بينما الصوت الهادر عبر المذياع هو الباطل نفسه، لأنه على حد عبارة إيليا أبو ماضي: "لم يترك لنا صحبا ننا جيهم سوى أشباح موتانا"، كوارث حروب ومقابر جماعية وغيرها من الموجعات.

أول مرة اختلي مع نفسي أمام صندوق الاقتراع، فأمتزج الفرح بالأمل والشعور بالإنسانية، وسالت من مقلتيّ دمعتان ساخنتان، فأنني من هذا الصندوق سأسهم في تقرير مصير هذا الحزب أو تلك المنظمة، وبالتالي حصة لي برفع أي من المئتين والخمسة والسبعين مندوباً إلى الجمعية الوطنية، والتي منها سيعين رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء، بل الدولة كاملة. وفي هذه الأثناء سمعت جلجلة غضب، قلت: هل تأجلت الانتخابات بعد الإدلاء بصوتي، وغمس سبابتي في صبغة الحرية والثقافة وهو الحبر الأزرق؟ قالوا: لا لم تؤجل الانتخابات، إنما عراقيون يطردون مندوبي قناة الجزيرة؟

هرعت إلى مصدر الجلجلة بعد رمي الاستمارة في صندوق الاقتراع، وإذا أرى مشهداً زاد فرحتي وزال ارتعاش يدي وخفف من قلقي، الذي لم أشعر به إلا في انتظار نتيجة امتحان، أو لحظة مغادرة العراق بأوراق مزورة. كان المشهد أن عراقياً من الناخبين وقف مجلجلاً، وسط قاعة ويمبلي شمال غربي لندن المخصصة للتسجيل والانتخاب: "أخرجوا قناة الإرهاب من القاعة". تجمع الناخبون وترك موظفو القاعة طاولاتهم، وهم من العراقيين، وأخذ يفصح الجميع عن مشاعرهم الغاضبة. حاول ستيوارت المسؤول عن إدارة مركز الانتخاب التهدئة، لكنه لم يستطع، فاضطر إلى توجيه الأمر إلى مندوبي قناة الجزيرة بترك المكان حالاً. قلت هكذا تبدأ الانتفاضات والثورات، صوت أو شرارة تلهب الجميع. لا أخفي مشاعر الزهو بهذا الموقف النبيل ضد أدوات الإرهاب، فالدم العراقي ليس دم براغيث مثلما تتعامل معه قناة الجزيرة.

تداعت أمامي ذكريات قديمة، يوم كان اسم الانتخاب أو ورقة الاقتراع تُسلم العراقي إلى حبل المشنقة، أو السجن في أحسن الأحوال. أتذكر ما كان يجري في الانتخابات الطلابية أو المهنية بشكل عام من سطوة وإفراغ للديمقراطية من محتواها. سمعت آنذاك لأول مرة بعبارة الفوز بالتزكية. سألت قريبي مجيد جاسم الخيون، وأنا في الصف الثالث المتوسط في متوسطة الجزائر في عمق الأهوار، حول معنى الفوز بالتزكية: قال: يعني ماكو انتخابات، أكو قائمة واحدة تنزل بلا منافس. وأردف قائلاً: علام تسأل هذا السؤال؟! وأن اسم خير الله أصبح خيري، وعلينا أن نسميه خيري لأنه فاز بالتزكية! وخير الله هو أخو مسؤول حزب البعث بالمنطقة جميل خلف. قال مجيد، وهو شاعر شعبي معروف، في مناسبة تحول خير الله إلى خيري "خير الله انكلب خيري وسادتنه انكَريزيه"، وقد دأبت العامة على تسمية الإنكليزي بالانكَريزي.

قصة ذلك أن البعثيين بعد مجيئهم إلى السلطة في السنة ١٩٦٨ حاولوا التستر على فضائحهم في ٨ شباط ١٩٦٣، فقرروا الانتخابات الطلابية في المدارس الثانوية. كان مع قائمتنا ثمانية عشر من ستة وعشرين طالباً وطالبة وهم كل طلبة ثانوية الجزائر بالجبايش، ولهم الثمانية الباقون. ولما قدمنا القائمة إلى مدير الثانوية السيد كاظم السيد ملك، وهو اليوم يشغل مركز رئيس المجلس البلدي بالمنطقة، قال ناصحاً، وهو أدرى منا باللعبة: ابني: هذا الإتحاد الوطني الذي تقفون ضده هو معين بقرار من مجلس الوزراء، فاهتموا بدراستكم، وتحتاج قائمتكم إلى مدرس يقف إلى جانبها عند التصويت. أحضرنا الأستاذ خضير عباس، وهو مدرس اللغة الإنكليزية من أهالي الناصرية، وافق بعد أخذ مشورة مسؤول حزب البعث حتى لا يتعرض للأذى.

لكن حدثت المفاجأة بعد مراجعتهم لعدد الطلبة وإحصاء من معهم ومن ضدهم. وما هي إلا لحظات ودخل شرطة الأمن الثانوية وساقونا إلى مركز الأمن، ولم ينته الأمر على خير، برغم تراجعنا عن الانتخابات، والقبول بما يريدون، لكنهم ظلوا يطالبوننا باعترافات حزبية وسياسية، لا نعرف عنها شيئاً. ومن ذلك اليوم لم أسمع ولم أشهد انتخاباً عراقياً، إلا في الهيئات الإدارية لهذا الإتحاد أو تلك المجموعة الثقافية الموزعة في المنافي. بعدها قبلنا بتسمية أحد مسؤولي الإتحاد الوطني لطلبة العراق بالناصرية خير الله خلف بخيري خلف، برغم أن منطقتنا لم تألف مثل هذه الأسماء الحضرية، فهي تميل عادة إلى الأسماء المركبة إن وردت مع مفردة الخير، أو مع اسم الجلالة الله، أو مع اسم محمد وعلي والحسن والحسين والزهراء. كان لأهزوجة الشاعر مجيد جاسم الخيون "خير الله انكلب خيري وسادتنه إنكريزيه" وقعها في النفوس، فقد اختصرت لنا تاريخ العلاقة السرية والعلنية بين البعثيين وبين الإنكليز ومن بعدهم الأمريكان.

بعد نجاح انتخابات الجمعية الوطنية، أو المجلس التأسيسي العراقي، ربما سيتغير الموقف من اللون الأزرق، ولم يبق الصابئة يعتبرونه من ثياب الروهة الشريرة، وهي إبليس أو أم الأبالسة، التي تقيم في العالم السفلي، ونزل للقضاء عليها ملاك النور هيبل زيوا (جبرائيل) بأمر من الحي الأزلي، ولم يبق محرماً ولون شؤم أيضاً عند الأيزيديين، بعد أن عمدوا سباباتهم بها، بل سيتحول إلى لون من ألوان الحرية والديمقراطية الزاهية المتفاءل بها. ألا تعلمون أن اللون الأزرق يطرد الذباب، مثلما رائحة البطنج تطرد الأفاعي؟!

أخذنا نتباهى بسباباتنا، نرفعها بوجه مقاطعي الانتخاب من المدعين أنفسهم بالمقاومة، ونشير بها إلى محب من بعيد علامة الرضا. لكن لعدم التعود على الديمقراطية وسرية الاقتراع، يسألك الكثيرون قبل الانتخاب: أية قائمة ستنتخب؟ وبعد الانتخاب: أية قائمة انتخبت؟ أخذ أولاد المقبلين على الانتخاب يستغلون الفرصة فيطلبون من أهلهم ما يريدون وإلا امتنعوا عن الذهاب إلى الانتخاب، أو رفضوا انتخاب قائمة الأهل المفضلة، كما حدث ذلك معي. أتذكر أن أحد الذين يشربون قال لصديقه المتدين، الذي ألح عليه بانتخاب قائمته: إذا تعهدت لي بأن تسمح لي باحتساء كأس سأنتخب القائمة التي تريد، فرد عليه صاحبه المتدين بالقول: لن يُمنع من الشرب أحد بالقوة. فقال له: لا، أريد ذلك مكتوباً. إنه مزاج مريح، ذاب فيه التعصب، وأقترب الناس من بعضهم بعضاً، وحدهم لون الانتخاب الأزرق، ومزاج الفرح الأبيض.

يصعب العثور في تاريخنا المكتوب على تجربة انتخابية نتوكأ عليها في حاضرنا. لكن ظهرت في أرضنا تجارب ظلت مقيدة في محيطها الديني، مثل انتخاب جاثليق الكنيسة الشرقية، ومركزها كان بطيسفون أو المدائن، لم تبعد عن بغداد سوى (شمرة عصا) مثلما يُقال. فبعد موت الجاثليق أو انتهاء صلاحيته بمرض أو مخالفة دينية يجتمع القساوسة وينتخبون جاثليقاً جديداً، كان ذلك منذ أيام الفرس بالعراق، لكن كثيراً ما يشوه ملوك الفرس والخلفاء العباسيون هذه الممارسة بفرض مرشحهم المقرب من البلاط، وأن هناك من تجاوز الانتخاب وحصر لفترة من الزمن الجثلقة في أسرة أبونا المنحدرة من شمالي العراق، ومازال العديد من هذه الأسرة قساوسة ومطارنة. وكذلك الحال بالنسبة للقيادة الدينية اليهودية بالعراق فكان الخاخام الأكبر أو رئيس الجالوت، كما يسمى قديماً، ينتخب من بين أهل الحل والعقد، حتى تحول هذا المركز حديثاً إلى رئيس الطائفة الإسرائيلية ثم الموسوية، وكان آخرهم ببغداد الأديب مير بصري. وينتخب شيخ الطائفة أو رئيس الأمة الصابئي المندائي، بعد حصوله على درجة دينية تؤهله لهذه المنزلة، مثلما كان الشيخ دخيل وعبد الله سام والد العالم الفيزياوي عبد الجبار عبد الله.

تبقى تجربة مرجعية النجف الأشرف تجربة مهمة في عملية الاختيار، فمازال المرجع الشيعي، ومنذ ألف عام، لا يعين ولا ينتخب بالاقتراع، بل يصل إلى مركز المرجعية عفوياً، يفرضه علمه ومنزلته بين بقية المراجع، بلا تأثير ملك أو خليفة إلا ما ندر. وقد يوجد أكثر من مرجع في آن واحد دون أن يتصادما أو يتصادم الأتباع خلفهما. كذلك لا يرث الأبناء الآباء لا في زعامة الصابئة ولا اليهود ولا الكنيسة ولا في المرجعية الكل يأتي عبر انتخاب أو عبر الأعلمية.

أما المُلك السياسي فظل بالعراق، منذ القِدم، يتوارثه الأبناء عن الآباء، فكل خليفة يعين ولياً لعهده، وهو عادة يكون ابنه الأكبر أو أخوه. وفي يوم وفاة الملك أو الخليفة يلقي قاضي القضاة أو الوزير خطابين في الوقت نفسه، الأول معزياً بوفاة السلف والثاني مهنئاً بولاية وبيعة الخلف، وكذلك ينشد الشعراء الرثاء والتهاني في وقت واحد. غير أن المغول نقلوا تجربة جديدة إلى العراق وهي أن لا يتولى ولي العهد السلطان أو الملك إلا بعد موافقة مجلس الأمراء من الرجال والنساء. فحسب التقليد المغولي عند وفاة الملك يمنع التجوال والسفر، حتى يتم تنصيب ملك جديد.

يذكر مؤرخ المغول الطبيب رشيد الدين فضل الله الهمداني الطريقة التي تولى فيها آباقاخان المُلك بعد وفاة والده هولاكو (٦٦٣هـ)، قال: "حينما توفي هولاكو خان، سدوا الطرق كما هو المتبع عندهم، وأصدروا الأوامر بألا ينتقل أي مخلوق من مكان إلى آخر ... وبعد الفراغ من إقامة مراسيم العزاء، اجتمع جميع الخواتين والأمراء والأنجال والأصهار وتشاوروا بشأن جلوسه على العرش" (جامع التواريخ- تاريخ المغول). وبعد اختيار الطالع الفلكي المناسب للجلوس على العرش من قبل الفلكي نصير الدين الطوسي اختير طالع السنبلة، فجلس آبقاخان على كرسي العرش في الثالث من رمضان عام الثور (٦٦٣هـ).

ومن التجارب التي ربما أنفرد بها العراق دون غيره من البلدان أنه تم تنصيب الملك فيصل الأول في الثالث عشر من آب ١٩٢١ ملكاً على العراق عبر انتخاب عام، وإن كان محدوداً بشيوخ العشائر ورؤساء القوميات والمحلات، أن كل رئيس عشيرة أو مختار يجمع أتباعه ويأخذ رأيهم بالجملة فيحصل على موافقتهم، وهنا انتبه الملك فيصل وعكس مقالة ابن خلدون "الناس على دين ملوكهم" فقال في خطاب التتويج الذي ألقاه في ذلك اليوم: "ولا يغرب عن الأذهان أنه إذا كان الناس على دين ملوكهم فالملوك على دين شعوبهم، فعلى قدر التضامن يكون النهوض، ونحن الآن أحوج الأمم إلى التضامن والتعاضد" (فوستر، نشأة العراق الحديث". قال ذلك وكأنه يوعد بوضع آخر، لا تتم فيه البيعة على الطريقة تتويجه.

لكن التجربة الحالية، ذات السبابة الزرقاء، لها نكهة أخرى، تفوقت على المحيط، وفيها تحد للموت. فما ينبيك أمرَ الرجل الذي قطع الإرهاب ساقه، فقال: سأذهب إلى مركز الاقتراع زاحفاً. وما ينبيك نحيب الرجل العجوز وهو يمسك باستمارة الانتخاب. وما تنبيك المرأة التي قالت وهي تشد عزم الناخبين: إن لم نحاربهم عبر صناديق الاقتراع سيأتون إلى بيوتنا ويقتلوننا!

لقد خضع الأمريكان والسياسيون لمزاج الناس، وربما أدركها من قبل فيصل الأول فقال: "الملوك على دين شعوبهم". عطل أللون الأزرق خلافة قصي لأبيه، مثلما سنها في تاريخ الإسلام معاوية بن أبي سفيان، لما قام أحد الدعاة يطلب البيعة ليزيد: "أمير المؤمنين هذا، وأشار إلى معاوية، فإن هلك فهذا، وأشار إلى يزيد، فمَن أبى فهذا، وأشار إلى سيفه". بيد أن الحبر الأزرق المحمول على سبابات العراقيين جعل المنافسة من أجل الإمامة عبر الأصوات لا السيوف، ومن الأماني أن يظل العراق هكذا دوحة لإخوان الصفاء وخلان الوفاء

٣٠ كانون الثاني: ولادة فجر من أعماق الظلمة

لؤي عبد الإله

لم تأخذ مني الرحلة إلى ملعب ومبلي اللندني أكثر من عشرين دقيقة، فخروجي المبكر من البيت مع اختيار يوم السبت للإدلاء بصوتي كانا عاملين أساسيين في سرعة وصولي إلى المركز الانتخابي الوحيد في الجزء الجنوبي من بريطانيا.

كانت السماء مختلفة قليلا عما هي عادة عليه في لندن في هذا الفصل: فعلى الرغم من وجود سحب رمادية تمتد بلا حدود في كل الاتجاهات كانت هناك فجوات صغيرة ما بينها تساعد على رؤية زرقة باهتة وراءها، لذلك هناك وعلى عكس المألوف أشعة شمس هاربة من بين تلك الخروق فوق سطح الغيمة الرمادية المتسعة توحي بنهار مشمس صاخب.

وهذه هي حال الانتخابات العراقية أو هكذا شعرت وأنا أقترب من كراج السيارات المخصص للناخبين. خصوصا مع توقف المطر التام وسيادة هدوء شامل لا ينبئ حقا بما يقف هناك وراء أبواب تلك القاعة المربعة الواسعة التي تنتشر فوقها الطاولات ضمن تشكيلات منتظمة تأخذ شكل وحدات مستقلة يتجه الناخب صوب تلك التي سجل نفسه فيها قبل أيام قليلة.

بعد الانتهاء من إجراءات التفتيش الأمنية وعبور الباب الرئيس قادني موظف انتخابات عراقي صوب النقطة التي سأدلي فيها بصوتي. كل شيء بدا منظما بشكل مدهش. كأن هناك تدريبات أجريت مسبقا لتنفيذ هذه العملية للوصول بها إلى هذا الشكل الأنيق.

بعد تسلمي لورقة الاقتراع كان علي أن أذهب وراء قائمة خشبية تخص نقطتي الانتخابية. هاأنذا أمام عمودين عامرين بأسماء اللوائح الانتخابية فوق الورقة: بدلا من أن يكون هناك اسم حزب واحد هناك أسماء (١١١) تنظيما؛ وبدلا من اسم مرشح واحد هناك عشرات الأسماء. هذه الغابة من التنظيمات تعكس طبيعة الربيع العراقي المتطرف: إنه يصل ولفترة قصيرة بطريقة عاصفة ليملأ الهضاب والوديان بأزهاره ويعصف بعطره كل ذرات الهواء.

وهكذا هو هذا اليوم: فجأة وخلال صراع مرير بين قوى الظلمة والضوء، بين تنفيذ متطلبات العملية الانتخابية في موعدها وبين العراقيل المستمرة هاأنذا أمام صندوق الاقتراع. وإذ أرمي بورقة اقتراعي أشعر كأن فجرا جديدا يولد في هذه اللحظة: فجرا يخص ملايين من الناس يقومون الآن في هذه اللحظة بنفس ما قمت به ويحملون على سباباتهم اليمنى نفس لون الحبر البنفسجي: علامة فارقة لأي عراقي موجود الآن فوق سطح الأرض وعلامة على هذه الولادة.

عند الخروج من القاعة كان هناك حولي أشخاص في طريقهم للمغادرة أيضا بعد مشاركتهم في الانتخابات. أستطيع أن أخمن إلى أي قائمة صوتوا لكن ذلك لم يخلق في نفسي أول مرة سوى شعور بالتضامن معهم. فكأن في هذه اللحظة يولد الوطن والمواطنة وتولد الأمة معهما. فهؤلاء جميعا هم شركاء معي يستطيعون أن ينتخبوا هذا الحزب أو ذاك وأن يغيروا خياراتهم غدا في أي انتخابات لاحقة. إنهم قد يختلفون معي اليوم في اختيار مرشح ما وقد يلتقون معي غدا، لكن ذلك لا يغير من حقيقة اشتراكنا في تأسيس وطن تتقرر خياراته السياسية عبر صندوق الاقتراع وعبر البرامج السياسية التي تتنافس الأحزاب السياسية فيما بينها ضمن الصندوق. هنا لا يصبح الوطن كيانا مجردا يحدد هذا الحاكم أو ذاك طبيعته أو أهدافه بشكل يخدم سلطته. وبالتالي فكل من يختلف معه ليس سوى خائن لهذا الوطن الذي حدد هذا الحاكم ملامحه ومنح نفسه براءة اختراع بامتلاكه. كذلك هو الحال مع المواطنة. فإذا كان الحاكم المطلق يقسم رعيته إلى مواطنين صالحين ومواطنين طالحين حسب خضوعهم أو رفضهم له ففي عصر سيادة صندوق الاقتراع ليس هناك سوى مواطنين متساوين يصوت كل منهم بنفس ورقة الاقتراع وصوته له نفس الوزن مثل الجميع بغض النظر عن مؤهله العلمي أو انتمائه السياسي أو القومي أو الديني.

في طريقي إلى كراج السيارات رأيت آخرين كان أغلبهم قادمين مع أسرهم. كان الكل يسير بخطى واثقة. أول مرة أشعر بأن هناك آصرة قوية تجمعني بهم. إنهم بعد قليل سيخرجون مع سبابات بنفسجية اللون، علامة على الانتماء إلى وطن مشترك لنا جميعا قرر كل منا وبمحض إرادته أن يكون واحدا من أبنائه، بدون أن يترتب عليه أي نوع من العبودية لهذا الحزب أو ذاك لهذا الحاكم أو ذاك. لكن هذا الوطن يزدهر بالاختلاف. هنا يصبح الوطن كيانا حقيقيا لا يتحدد من خلال مفهوم مجرد يصوغه حاكم ما ولا يتحدد بأرض لا تستخدم إلا مسرحا لبطولاته في وقت يكون المواطنون فيه مجرد وقود مجاني لنزواته.

لكن صندوق الاقتراع الخالي من أي سلاح أو تكنولوجيا خارقين سيولد شيئا أعظم: إنه الأمة العراقية. تذكروا أن الأواصر التي تجمع العراقيين ببعضهم البعض أكثر بكثير من تلك التي جمعت أولئك الأغراب الذين وصلوا إلى قارة أمريكا الشمالية منذ (٣) قرون من مختلف أرجاء العالم: وها نحن نشاهد أمامنا أمتين محترمتين تطرحان نموذجا يقتدى به: الولايات المتحدة وكندا. ولا يعود الفضل في تحقق إنجاز تعجيزي وبزمن قصير كهذا إلا بفضل صندوق الاقتراع. بفضل مبدأ الشراكة الذي رسخته القوانين منذ بدء استيطان هؤلاء الأغراب في العالم الجديد. كذلك هي الحال مع ظهور أمم عديدة كالأسترالية والنيوزيلاندية والسويسرية بفضل صندوق الاقتراع. بفضل ترسخ مبدأ الشراكة على جميع المستويات من سياسي إلى اقتصادي إلى ثقافي. إنه مبدأ قبول الآخر. قبول حكم الأكثرية مع احترام حقوق الأقلية، بغض النظر عما تمثله الأكثرية أو الأقلية من قناعات.

لذلك فإن هذه الانتخابات هي أول خطوة نحو تحقيق حلم ظل يراود كل تلك الأجيال التي ضحت بحياتها من أجل تحقق نظام ديمقراطي عادل في العراق. يوم ٣٠ كانون الثاني هو عيد لكل العراقيين: الموتى والأحياء منهم على السواء؛ بغض النظر عن انتماءاتهم السياسية والدينية والقومية. إنه اليوم الذي كسبت كل تضحيات شهدائنا عبر قرن بأكمله معنى جليا: ولادة أمة حرة عن حق: الأمة العراقية.